تـمّ تحميل هذا الملفّ من مكتبة الأديب الرّاحل رمضان لاوند | جميع الحقوق محفوظة © www.RamadanLawand.com

الأَديب و المُفكِّر الرَّاحِل
رَمَضان عَبْدِ الرَّحْمن لاَوَند
سيّد المنابر

أوليات الفكر الثوري عند العرب

الحلقة الأولى

هناك علاقة وثيقة بين وعي التراث التاريخي لأمة من الأمم وبين تفكيرها الثوري الأصيل.

والعلاقة هذه تبدو للمراقب أوضح ما تكون حين يتتبع العوامل أو العامل الأساسي الذي ينطلق منه طموح الأمة وتتحرك به قواها الفاعلة المبدعة.

إن أمة لا تاريخ لها –وبعبارة أخرى لا خلفية لأخلاقها وأفكارها وعقائدها في وجدانها اللاشعوري –أمة عاجزة عن انتزاع المبادرة وعن مجاوزة الأحداث التي تواجهها في كل يوم . إنها بطبيعة إحساسها العميق بالفراغ التاريخي تفضل العيش في الظلام وتؤثر الابتعاد عن الأنوار فهي تتلفع بألف ستار وستار خوفاً من الحركة والمواجهة والاستقلال.

ولما كانت الأمة العربية في حاجة ماسة إلى البحث عن هذا التراث الذي تعي به قدراتها الكامنة على الاستقلال والمواجهة والحركة فقد كان من الطبيعي جداً أن تقبل على ما احتفظت به خزائن الكتب القديمة تتصفح اوراقها وتبحث عما فيها من الأدب والفكر والتجارب مسلطة الأضواء على ما تتميز به أو ما يتميز به واضعوها القدماء من الأصالة والقوة والامتياز.

وقد أدرك المبشرون الأولون الذين هبطوا تراب المشرق العربي أهمية هذه الظاهرة فأقبلوا رغم أغراضهم التبشيرية المختلفة والمتناقضة في أكثر الحالات على نبش كتب التراث والبحث عن الثروة اللغوية والفكرية المخبوءة في ثنايا مخطوطاته، فكان أن ظهرت أول مطبعة بالعربية عن طريق المبشرين الأميركيين تبعتها مطبعة يسوعية مثلها في النصف الأول من القرن التاسع عشر . وبادر أصحاب هاتين المطبعتين إلى نشر التعليم والثقافة العامة بطبع الكتب التعليمية

التي وكلت مهمة تأليفها إلى كل من الأديبين ناصيف اليازجي وبطرس البستاني من ناحية، وبتحقيق بعض المحفوظات القديمة التي بدأ بها بعث التراث القديم من ناحية أخرى.

ولا غرابة في أن يبادر المبشرون إلى تحقيق هاتين الخطوتين إذ لا سبيل إلى تنفيذ سياستهم التبشيرية ما لم تتم التوعية الثقافية والتعليمية التي تكون منطلقاً للوصول إلى الأغراض الدينية البعيدة والقريبة .

وأنشأت مدارس البنين والبنات في عدد من المدن اللبنانية والسورية فكان لليسوعيين مدارسهم فى بيروت وجبل لبنان – عينطورة – ودمشق وحلب. وكان للأميركيين مثل ذلك في بيروت بخاصة ثم تبعهم الإنكليز والروس. لكن اليسوعيين الكاثوليك والأميركيين البروتستانت دون سواهم قد استطاعوا أن يحققوا خطوات أوسع وأن يتوصلوا إلى إنشاء جامعتين في مدينة بيروت كانتا حداً فاصلاً بين المحاولات التعليمية الأولية القلقة وبين المحاولات اللاحقة التي انتزع بها الطرفان اليسوعي والأميركي المبادرة في توجيه السياسة التعليمية الجامعية .

ومهما قيل في الخدمات التي قدمتها هذه الجمعيات التبشيرية للعناصر العربية فإنّ الثابت أن السياسة التعليمية قد استطاعت أن تشارك مشاركة بعيدة المدى في طبع الثقافة العربية بطابع ما يزال يحدث أثره حتى اليوم في أفراد النخبة من العرب.

صحيح أن اللغة العربية قد انتعشت وأنّ عدداً كبيراً من المحفوظات اللغوية والأدبية قد خرجت إلى النور ، وأن عدد المتعلمين قد زاد زيادة كبيرة ، وأنّ نوعاً من التقارب قد تم بين الأقليات الدينية التي كانت موضع اهتمام خاص من قبل المبشرين وبين الأكثرية الإسلامية ، ولكن الصحيح أيضاً أن الثقافة العربية قد فقدت الكثير من طابعها الإسلامي حتى كاد التراث الإسلامي أن يكون من بين مشاغل الفكر المثقف الجديد كما تكون أشياء المتاحف الأثرية من بين مشاغل الناس الذين يعيشون في العصر القائم ..

لقد انحصرت أبعاد الثقافة الإسلامية وضاقت أطرافها حتى كادت لا تكون غير مادة وحيدة لنوع معين من الناس هم المتخرجون من المدارس الدينية الإسلامية ولا سيما جامعة الأزهر في القاهرة ثم الزيتونة والقرويين في الشمال الغربي الأفريقي ومن بعدهما بعض المعاهد المتواضعة نسبياً في دمشق وحلب .

الشيء الثابت أن ما يسمّى بالثقافة العربية المتفاعلة مع الأحداث اليوم ومع دنيا الناس قد أخذ ينفصل بصورة مطردة عن الثقافة العربية الإسلامية . وغرقت عقول النخبة من العرب في تيارات الفكر الأجنبي، وتحول الفكر الإسلامي إلى ظاهرة هامشية لا يكاد يمسك بها غير عصبية الحس التاريخي والتقاليد الاجتماعية والروحية عند جماهير الشعب .

إن الحقيقة التي يجب أن ندركها تماماً هي أن الفكر العربي الذي صنع على عين المؤسسات التعليمية والجمعيات الأدبية في داخل الأرض العربية وفي خارجها هو فكر نابع من جذور غير الجذور العربية الإسلامية .

ولعل فكرة العلمانية بالمعنى الذي أدركته الأجيال الجديدة منذ بداية القرن العشرين ، وهي فكرة الفصل بين الديني والزمني، أو بين الوطن والدين، أو بين ما هو لله وما هو للوطن، هي النتيجة الحتمية لطغيان المواقف الفكرية الأجنبية على الشخصية الثقافية التاريخية عند العرب.

والملاحظ أن نجاح المبشرين قد سجل عملية الفصل هذه ووقف عندها لأسباب تتعلق بجوهر الشخصية الإسلامية وبما أطلقنا عليه منذ قليل اسم الحس التاريخي عند العرب المسلمين، وهو نجاح خطير أحدث نقلة فكرية ضخمة من عالم القرن التاسع عشر إلى عالم القرن العشريني من ناحية، كما أحدث انحرافاً خطيرا عن التيارات الثقافية الإسلامية التي تتميز بها الشخصية العربية في التاريخ.

وقد نشأ عن هذا النوع من الازدواج الثقافي تمزق روحي واجتماعي أحدث فاصلاً عميقاً بين النخبة المثقفة من أبناء العربية وبين جماهير المسلمين . وما تزال الأمة العربية تعاني من هذا الفاصل الكثير من المتاعب . ولعل كل الأزمات التي واجهها العرب حتى اليوم في كل ميدان من ميادين الحياة القومية العامة أن تكون الحصيلة الضرورية لظهور هذا الفاصل.

الثابت أن الثقافة التبشيرية على اختلاف أساليبها وخططها مع الروافد الثقافية الضخمة التي تزودت بها في أشخاص الفتيان والفتيات العرب العائدين من جامعات الغرب ومعاهده العليا قد استطاعت أن تخلق نوعين من العلاقات الحضارية بين الغرب وبين العرب . أما في بلدان كلبنان ومصر فإنّ شيوعها الهائل في أوساط النخبة المثقفة قد حول الصراع بين الغرب وبين بعض البلدان العربية إلى نوع من الصراع السياسي والاقتصادي وما يدور حولهما، بينما استمر الصراع بين الغرب وبين منطقة كمنطقة الجزيرة العربية شيئاً على مستوى التنازع الحضاري العميق.

ونحن لا نعني بذلك أن البلدان العربية المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط بما فيها بلدان الشمال الأفريقي قد خلصت نهائياً لتيارات الثقافة الغربية بل نقصد إلى تقرير الحقيقة الواضحة هي أن النخبة من المثقفين فيها ، وهي التي تسيطر على مقدرات هذه البلدان قد أصبحت في شبه عزلة عن القواعد الشعبية الأساسية، وبالتالي عن الروح التاريخية للشعب، فهي وهذه القواعد فى حالة تمزق مستمر ، بينما بقيت الجزيرة العربية بصورة خاصة موصولة الجذور بالثقافة الإسلامية التقليدية. والمعضلة الكبرى التي تعانيها هذه الثقافة الاإسلامية هي أنها لم تستطع حتى اليوم أن تنتزع المبادرة لتصبح بؤرة جذب كاف يتحقق به التوازن بينها وبين بقية البلدان العربية، كما أنها لم تكتسب بعد من المرونة والقدرة على الاستيعاب بحيث تواجه المد الحضاري الغربي مواجهة القويّ الذي يتفاعل دون خوف من فقدان شخصيته الأصيلة.

وإذن فالثقافة العربية المعاصرة في إحساسها الثوري العميق تتحرك كمن به حيرة وضياع. إنها فى صميم معركة أشبه بمعارك الثورات الداخلية التي تستعد لإخراج وليد جديد بثمن كبير هو التمزق الداخلي والتناقضات العنيفة القاسية.

على أن التفسير الذي أشرنا إليه والحدود التي وصفناها، بين الوصفين الثقافيين العربيين من ناحية وبينها وبين الثقافة الغربية من ناحية أخرى، ليس تقسيماً دقيقاً ولا هي حدود فاصلة بالمعنى الحرفي للكلمة. ذلك أن للفكر الغربي ثمراته في الجزيرة وللثقافة الاسلامية قواعدها في كل بلد عربي . وبسبب من هذا التداخل في الحدود وفقدان الدقة في التقسيم تبدو لنا صورة الفكر العربي الحديث غامضة مبهمة (مستبهمة) تماماً كما تكون صورة الثورة الاجتماعية والسياسية في المواجهة التي تجري بين العناصر المتناحرة في البلد الواحد.

الشيء الذي نؤمن به أن الثقافة العربية الإسلامية تجتاز مرحلة طبيعية . وأن ما تواجهه من المتاعب هو شيء طبيعي أيضاً، وأن شخصيتها الأصيلة التي يسقيها الألم وترعاها الحيرة وتدفع بها إرادة فرض الذات النابعة من الحس التاريخي العميق، لن تلبث في يوم عاجل أو آجل حتى تخرج من الأزمة وهي أشد مكراً وأعمق إحساساً بذاتها وأقدر على انتزاع المبادرة وأقوى على استيعاب تجارب الغرباء وأفكارهم دون أن تفقد أصالتها القومية.

وقد كان الفكر العربي الإسلامي حرياً بالذوبان والضياع لولا أنه يتمتع بتراث تاريخي ضخم جعلت منه التجارب الإسلامية وعقلية الإسلام جبهة مستعصية على الغزو الخارجي.

ليست هي المرة الاولى التي يواجه فيها العرب المسلمون مثل هذا الامتحان العسير . وكما سبق لهم أن خرجوا منه منتصرين أقوياء قد احتفظوا بأصالتهم رغم كل الروافد الأجنبية القوية التي جاءتهم من كل مكان حين تلقفوا تيارات الثقافات اليونانية والفارسية والهندية، فإنّ خروجهم من مأساة الامتحان المعاصر هو النتيجة المرتقبة للصراع العنيف الذي يخوضون اليوم غمراته على صورته السياسية العسكرية الاقتصادية ضد اسرائيل، وعلى صورته الثقافية ضد الحضور الفكري الغريب فيما يطلقه من فلسفات اجتماعية او نظرات فكرية أو أذواق فنية وأدبية .

وإذا كانت المعركة قد طالت فلأن عناصرها الأساسية تتمتع بقوة ضخمة، ولأن الأزمة لم تقترب من القمة إلا بعد الحرب العالمية الثانية .

الفكر العربي الإسلامي الأصيل ما يزال يحتفظ بوجوده رغم التقدم الذي سجله الفكر الوافد والمراكز التي انتزعها في طول البلاد العربية وعرضها.

ومما يزيد في هذه الطمأنينة هو أن روح الأمم التي تمثل سلسلتها الفقرية في استمرارها التاريخي ليست موجودة في طبقة المثقفين بل هي قائمة في القواعد الشعبية ، الخزان العميق لإرادة البقاء ونبض العقيدة وجذور الشخصية الأصيلة .